

تطور فن الغزل بين العفاف والمجون في العصر الأموي

The concept of modesty and liberalism in the erotic poetry during the Umaid Era

الدكتور شمس الحسينⁱ الدكتور فرهاد اللهⁱⁱ

Abstract

The art of erotic poetry in Arab has been passed through several literary years in which various features in the art have been acquired or otherwise ignored. Some of the poets throughout their lives have been found focusing on modesty in their love poetry. They have presented erotic based on moral values and ethical lessons to access their beloveds. The others are seemed inclined to interpret the shameful deeds. This variety propagated two major groups in Arabic poetry especially in Ummayad era.

The next comers followed them and proceeded these modes in their poetry.

In this article we have presented the historical background of this art. More over the founders and followers and their contribution has been presented.

Key Words: *Erotic poetry, Modesty, Shameful deeds, Umaid Caliphate*

قبل المدخل

على أن الغزل ما زال مضمحل الصورة في الشعر الجاهلي، وعلى كونه ممزوجا بفنون شعرية أخرى، لا ريب ولا شك في أن الغزل نال سهما كبيرا لدى العرب في ذا العصر بالنسبة إلى تلك الفنون غيره، وقد ملأ هذا الفن فجوة عميقة في الأدب يختفي في

ⁱ الأستاذ المساعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة عبد الولي خان، مردان

ⁱⁱ الأستاذ المساعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة كوهات

الحماسة حيناً وآخر يتراءى في الوصف أو الرثاء. وفي تلك الحقبة مصاحبةً بعصر صدر الإسلام دار رحاه حول الأطلال المندثرة والبكاء عليها يحتمل معه معنيين مختلفين لكن لا بصورة واضحة غير مسماة الاسم وبدون رسم الحدود المعينة لها، حيث كان كما قلنا لا ينتزع قسمه الجميل الممدوح من قسمه القبيح والمذموم. ولا يرجى من عامة رجالهم هذا التفريق بين المذموم والممدوح أو قل: المجون والعفاف. لا معنى هذا أنهم لا يعرفون الفرق بأسرهم، بل عدم اعتنائهم بالفرق بين النوعين اضطرهم بالتسوية في الغزل الإباحي والعفيف لفظاً وشكلاً. ولأمثال تلك الأسباب المذكورة سمى الإسلام هذا العصر بعصر الجهل.

ومن دلالة قوية على احتواء الغزل بكلا النوعين هو معلقات الشعراء الجاهليين البارزين الذين فاقوا على رجال الميادين الشعرية في كل عصر ومصر، ومع ذلك ما زالت تلك المعلقات تتقدم بلاغةً بفنون الشعر الرائجة الأخرى في نفس العصر الدائرة بين الحماسة والوصف لمراكبهم وافتخارهم بأجسامهم واهتزازهم بأمور الحب والعشق وكذا يتخللها الوصف لمظاهر الطبيعة من حسن جبل أو رواقه مطر أو اخضرار مرعى أو بيان لاصطيادهم.

امتزاج الغزل بالفنون الأدبية الأخرى في معلقة امرئ القيس نموذجاً:

ولمزيد الوضوح لما ذكرنا، نحن نحلل إحدى تلك المعلقات، ليكون بناء كلامنا مشروحة متبينة. هذا امرؤ القيس سيد شعراء العرب الجاهليين¹، هو عندما يصنع معلقته فيشرع بذكر الأطلال الدارسة التي قد لبث هو فيها مع عشيقته، وهو بعد مدة طويلة يمر عليها فتتذكر له لحظات هذا العيش المترف، فيلتبس من أصدقائه وقوفاً ليتمتع من ذكريات العيش المتطيب، فيقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ثم يطيل الكلام عن الأطلال ويقصّ قصص تلك المنازل؛ فاحتوى ببيان آثار

الظباء حتى استكمل هذا الصنف الشعري في سبعة أبياتٍ، وآخرها:

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول²؟

ثم يبدأ بالقسم الثاني من قصيدته، هو الغزل الخالص، وأول بيت فيه هو:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهُ بما غير معجل³
ثم يطيل في ذكر محبوباته ففي الوصف الحسي للمرأة ما يكشف عن ذوق
الشاعر المرهف بحيث تناول بريقة الترائب، وسحرة المقلتين، وغزارة الشعر، وامتلاء
الساق، وصفاء البشرة، ولين البنان. فهكذا يستغرق هذا الصنف سبعة وثلاثين بيتاً. ثم
في القسم الثالث يشكو همه جراء لطوال ليل الفرقة التي قد ظلّ الشاعر أن نجومها
مشدودة بجبل يذبل وهي لا تنجلي بإصباح، فهو يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي⁴

وفي آخر البيت من هذا النوع يقول:

فيا لك من ليل كأن نجومه بأمراس كتان إلى صم جندل⁵

وأما القسم الرابع من معلقته فهو الفخر بأصدقائه، وبأن ألقى نفسه في

الأزمات، وقابل الذئاب متفرداً ولم يخفّه، وهو يقول:

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل مني ذلول مرخل⁶

وواد كجوف العير قفرٍ قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيل⁷

وكذا أحاط فخره بأربعة أبيات، ثم تسلل منه إلى وصف طويل عن فرسه في

ثمانية عشر بيتاً من الشعر، وأدخل فيه نوع بيان من اصطياده فهو يصف خيله مصحوبه

ببيان الاصطياد قائلاً:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجر قيد الأوايد هيكل⁸

مكرّ مفرّ مقبل مدير معا كجلمود صخر حطّه السيل من عل⁹

ثم يقول:

كأن دماء الهاديات بنحره عصاره حنّاء بشيب مرخل¹⁰

وينتهي هذا النوع عند قوله:

فبات عليه سرجه وجامه وبات بعيني قائما غير مرسل¹¹

وفي القسم الأخير من المعلقة - وهو القسم السادس - يصف محاسن الطبيعة

وجمالها ورواءها؛ فيصف بروق السماء وسنا برقه وتفجيره السحب، وسرعة انتشاره،

وانحمار السيول، ويعجب بذعر الحيوان، وازدهار النبات الأشجار، ويصف الجبل الذي

قد أحاط به مياه المطر؛ فهو يقول:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليمين في حيٍّ مكلَّل¹²
وكذا تستكمل القصيدة من واحدٍ وثمانين بيتاً حسب شرح الزوزني¹³ على
معلقته.

فأنت ترى كون المعلقة مصنوعة من الأبيات غير قليلة، في مختلف الفنون
الشعرية من وصف الأطلال، والغزل الواضح، وذكر الموم، والفخر بالأصدقاء، ووصف
الفرس المصحوب بلمس يسير لذكر الصيد، ثم الطبيعة وما تجري فيها من محاسن
الجمال.

رغماً أن الأصناف هناك في معلقته متعددة، ورغماً من كون صنف الغزل فيها
أكثر احتواءً بالأبيات من احتواء الأصناف غيرها، وعلى أن أمراً القيس سيد الشعراء في
عصره، ما زالت طبيعته تميل إلى الفسق والفجور والمجون والتمتع بالنساء مع تصريح منه
بذكر مساويهنّ، ولو كان في غزله شبه العفة التي تختفي حيناً في غبار التلعب بعشيقاته
وتظهر آخر في صورة بيناها.

الغزل بكلا نوعيه: العفاف والمجون في شعر امرئ القيس

قد جمع امرؤ القيس بين الغزل العفيف والماجن في أشعاره بحيث ذكر بعض
المفاضح وهتك أستار الحياء والعفة، وفي بعض المواضع منها تمتع بذكر ما له علاقة
بعيشقاته فحسب، كما نحن نراه في كونه ملتصقاً من أصدقائه وقوفهم بأطلال العشيقه
التي قد مرّ بها بعد مضي الزمان وبعد كونها صارت دارسة مندثرة. وهو يقول في الغزل:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل¹⁴

إذا قامت تضيع المسك منهما نسيم الصبا جاءت برثا القرنفل¹⁵

بعد أن شبه امرؤ القيس رياهما بطيب نسيم هبّ على قرنفل وأتى بريآه،
وتعطرت الفضاء بها، ثم وصف جمالهما فذكر أسوأ حاله بعد أن صارتا بعيدتين منه،
فيقول:

فاضت دموع العين مني صبايةً على النحر حتى بلّ دمعي مجملي¹⁶

ثم أن يرى ما جرى بينه وبين عشيقته عنيزة يوم عقر الفرس لزميلاهما، قد استغرق الشاعر في ما وقع منه لغيرها من العشيقات له، وبعد أن طلبت عنيزة منه النزول من مطيتها فهو يكتب على دربه بوضوح كامل حتى قال:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا أمراً القيس فانزلي
فقلت لها سيرى وأرخي زمامه ولا تبعيني من حناك المثلل¹⁷

ولم يكتف بهذا القدر من الفضاحة والوقاحة حتى قال:

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضعي فألهيتها من ذي تائم محول¹⁸
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتختي شقها لم يحول¹⁹

إننا نصل في ضوء ما مرّ من تحليل لمعلقه امرئ القيس إلى أن الغزل بمعنييه كان موجوداً في العصر الجاهلي، وكانوا لا يفرقون بين القسمين بل يجروهما معاً، ويجمعون بينه وبين الأصناف الشعرية الأخرى. مع هذا كان هناك بعض الشعراء من تطهّر شعره عن تلك الفضائح مثل عنتر بن شداد العبسي²⁰ والحاتم الطائي²¹ وغيرهم.

تطور الغزل في عصر صدر الإسلام

كانت هي حقبة مضت، ثم جاءت حقبة أخرى وهي عصر صدر الإسلام، فلم ينقص الغزل في هذه الحقبة أيضاً من شأن نفسه نمطا وطريقة من حيث بداية القصيدة بالذكر لأطلال البيوت الخربة، البيوت التي كان يقضى فيه شاعر حياته مع عشيقته، وكذا بإحاطة في الغزل بما كان يحتويه في العصر الجاهلي من البكاء على الديار المدروسة واستخدام الكلمات الفخمة ومزجه بالمديح أو نوع شعري آخر بحيث نجد في "البردة" لسيدنا كعب بن زهير²² عندما أراد الوفد على النبي عليه السلام متعذرا إليه لما صدر عنه في حقه عليه السلام. فهو يبدأ قصيدته بالقول عن ذكر رحيل سعاد: عشيقته، فهو يقول:

بانت سعاد مني، فقلي اليوم متبول متمم إثرها، لم يُفد، مكبول
هيفاء مقبلة، عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها، ولا طول²³

فهو يسلك في شعره سلوك الجاهليين، وهكذا يستغرق الغزل أربعا وثلاثين بيتاً، ثم جاء بأعذاره إلى النبي عليه السلام، كما مزج به مديح الرسول عليه السلام.

قد رأينا كون الغزل مختطلاً بمقاصد الشعر الأخرى بجميع أوصاف في كلا العصرين: الجاهلي وصدر الإسلام، وهو مدروب بالتقليد محتويًا بين الأغراض المتعددة. ولا تخلو قصيدة من ذكره سواء نراه في مقدمتها أو في ثناياها أو في الأخير. ثم أن تحولت الخلافة إلى الأموية وازدخرت الأرض بأشياء الترف والرغادة، وزُهي العيش، وأترف الناس لباساً وثروةً وتعيشاً، وضعف زمام الأخلاق لدى بعضهم، ومالوا إلى ممارسة في غرض واحدٍ من أغراض الشعر حتى نال فيه منزلة يعرف بها. فصار للغزل العربي صنفان مختلفان واضحان، وهما: العفيف والماجن الإباحي الفاضح.

ثم يمتاز كلا النوعين بأفراده وأسرته، إذا ما يسمع رجل عن أحدهم فيتصور بما عُرف به ذاك الشخص وبما التزم به طوال حياته. فكان رواد الغزل العفيف عند الأموية هم أصحاب البوادي من شعراء بوادي الحجاز ونجد كبنو عذرة وبنو عامر وتميز غزلهم بنقاؤه وعفته. وتولى أمر زعامتهم فارسهم جميل بثينة²⁴. وبيزاء ذلك رواد الغزل الإباحي هم أصحاب الحواضر والمدن مثل شعراء مكة والمدينة، ويوصف شعرهم على أنه شعر صريح فاضح يهتك أستار الحرائر، وإمامهم في الفن هو عمر بن أبي ربيعة²⁵ وتبعه العرجي²⁶ وبشار بن برد²⁷.

أسباب القول بالغزل العفيف والمجون في هذا العصر

من المعلوم أن التأثير في كلام رجلٍ يجيء من مجتمعه التي يقضي فيها حياته، فشعراء المدن والحواضر بعلتهم المعلوم وهو توفر بكل ما يحتاجون إليه في أمور حياتهم، قد انفعلوا بالمجتمعات التي عاشوا فيها. ثانياً جمال الفتى وسوء تأديبه يتركبان حبل الحياء على غوارب الرجل، الأمر الذي يجعله غير معتنٍ بمقتضيات العصر وأهله، ثم أضف إلى ذلك توفر الجوارى والفتيات التي يشغفن في ماله وجماله، ثم تحتهد كل منهنّ في القرية من الرجل وتقدم نفسها له، فكيف لا يتأثر شعر شاعرٍ بكل تلك المنفعلات إذ معظم الشعر صدى لمثل تلك الملهيات، والشعراء أشعر الناس انفعالا؟ ونفس الأحوال وقعت عند عمر بن أبي ربيعة حيث ربّته أمه حراً فيما يشاؤه أو يستهويه، مضيئة إلى ذلك

كانت داره مليئة بالجواري والعلمان، وكان متروك الحبال على غواريه فحدث ما حدث بأن تعرض للزائرات في مواسم الحج، يجلس في طريق الحاجيات يدهن بالدهن ويرسل شعره، ثم يترض لهنّ بالتشبيب بهنّ.

ثم قامت جماعة التقاة ضدّ هؤلاء، وكان معظم تلك الجماعة لا كله هم رجال البوادي، وذهب جلهم مذهب العفاف والتقى، إذ تكفي لأحد منهم نظرة حانية من قبل محبوبته، والحب لديهم حب طاهر لا يعترف أهله بجسد العشيقة وشهواتها والتمتع بملذاتها، وكذا كانوا يقنعون بعشيقة واحدة منذ الوقوع في الحب إلى أن يموتوا حتى نرى عدم التفاتهم إلى من لامهم بحبهم، وكان كل شاعر يلتزم بواحدة لا يتبغي غيرها، بل تكتمن سرائرهم في قلوبهم حتى ينقلهم الموت إلى القبور، ولم يزل يتسمون باسماء محبوباتهم ويعرفون بعشيقاته مثل جميل بثينة وكثير عزة²⁸ ومجنون ليلى²⁹.

وجلّ شعراء الأموية من الجماعة الأولى عاشوا للحب والغناء ما أدت إلى إستقلال هذا النوع كفن مستقل يصلح للغناء لا الإنشاد فحسب، ثم إثرها مالت النفوس إلى اختيار الأوزان الخفيفة مثل السريع والمتقارب والرمل لكونها أصلح للغناء دون غيرها. ثم انتقاؤهم لكلمات سهلة عذبة استكملت ما بقي من نقصه، وأصبحت كثرة مقطوعات قصيرة. ولذا نجد هذا الفن تطور في هذا العصر تطوراً واسعاً بين كلا نوعيه الدائرين بين الإباحة والعفة يحتمل معه أموراً زادت في إطار الغزل لفظاً ومعنى وفحوى.

بعض النماذج للغزل العفيف

ينبغي أن نقدّم بعض النماذج الغزلية الناشئة في العصر الأموي إتماماً للبحث وإقامةً لاستدال على ما ادّعيناه. فشاعر عذري أموي - الذي تكلمنا عنه في ما سبق - كان يقتصر على محبوبة واحدة وعلى اهتمام بالغٍ بجمالها المعنوي أكثر من الجسدي الفحش. ثم يدور نقله في تعبيره عن الحب بين شوقه وألمه، وصد حبيبته عن وصلها، والأمل في الوصال إليها. وقلما يقع أن يتمنى الشاعر وصال المحبوبة إلى مدةٍ مديدة.

والشعر في الحب العذري لا يتقاضى أن تكون المحبوبة لشاعر ما ذات جمالٍ خارق، وجسد متناسق، بل يكفي أن تكون في عيني الشاعر المحب جميلةً وحسناً، كما يتوضح من قول المجنون:

يقول لي الواشون ليلى قصيرة فليت ذراعاً عرض ليلى وطولها
وإن بعينها لعمرك شهلةً فقلت كرام الطير شهلاً عيونها³⁰

قد لاحظنا عبارة المجنون عن ليلاه بعدم الالتفات إلى وشي الواشين ولوم اللاتمين واللائمات، وهو ينكر عليهم أقوالهم في التنفير عن ليلاه. وقد صرح كل شاعر عذري عن خوالج نفسه حول عشيقته في كلمات ذات نقاءٍ وصفاء، وصدر هذا اتباعاً بإخوته العذريين الآخرين تجنبا عن الطعن في جماعتهم وتمسكا بحب حبيبة واحدة. ومثل قول المجنون يقول جميل بثينة:

لقد فرح الواشون أن صرمت حليبي ثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلاً يا جميل وإني لأقسم مالي عن بُثينة من مهل³¹

هذا هو شأن جميل، وعندما نتعرض لأشعار ابن أبي ربيعة فستتوضح الصورة وتتجلى الفرق بين الشعارين. إذ جميل لا يقول الشعر إلا في بثينة ولا يعبا بما يهتف به الناس حوله، ويخال لكل عاشق كأنه تعبير عن أحاسيسه ومشاعره. وأما عمر الفاضح فيقول في هذه وينصرف عنها إلى أخرى حتى البيت التالي من قصيدته يكون مقولاً في غيرها. والشاعر العذري لا يظنّ بحبها إلا حظاً يحظى به قليل من الناس. وفي نفس المعنى يقول جميل رائد العذريين، يخاطب من يسترغبه عن محبوبته:

ألا أيها النّوأم، ويحكّم، هبوا ! أسألكم: هل يقتل الرجل الحبّ ؟
ألا رُبّ ركبٍ قد وقفنّ مطيهم عليك، ولو لا أنت، لم يقف الركب³²

ما أثقل عليه في حبها إلا لوم اللاتمين الذي يلومونه لحبه إياها، وهو يكره ذلك اللوم، ويعللّ كون حبها من بدايات حياته، فهو يقول:

لامني فيك، يا بُثينة، صحبي لاتلوموا، قد أفرخ الحبُّ قلبي
زعمَ الناسُ أنّ دائي طيبي أنت، والله، يا بُثينة، طيبي³³

ويقول:

يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتها يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتها، فيعودُ

علقتُ الهوى منها وليداً، فلم يزلْ إلى اليوم ينمي حبها، ويزيد³⁴
والشاعر لم يُردْ امرأة غير بثينة قط، ثم ذهب في الإشادة بولوعها حتى بالغ
وأنشد:

أبي القلبُ إلا حبُّ بثنة لم يردْ سواها وحبُّ القلبِ بثنةٌ لا يجدي³⁵

هذا هو رائد الشعراء العذريين لا يرى الحب إلا لبثينة، ولا يلتفت إلى اللؤام
لأن حبه هو حبٌّ خالص غير مغشوش بمحاسن الجسد. وسلك أصحاب جميل أيضاً
على نفس المنهج، مثل أحوص الأنصاري³⁶ حيث هو يردّ على من لأمه في حب المحبوبة
قائلاً:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلماً
فما العيش إلا أن تلدّ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفتدا
ثم يمثّل لقاءه بالعشيقه كأن الظمان قد روي بعد عطشه، فيقول:
وإني لأهواها وأهوى لقاءها كما يشتهي الصّدي الشّراب
المبردا³⁷

والأحوص يضاهو الجميل في معظم المعاني الشعرية العذرية. وفي نفس المعاني
تشابحت أبياته بأبيات الجميل، فهو يقول:

سلام ذكرك ملصق بلساني وعلى هواك تعودني أحزاني
مالي رأيتك في المنام مطيعةً وإذا انتهت لجحت في العصيان
أبدأً محبُّك مُمسك بفؤاده يخشى اللّجاجة منك في الهجران
ثم يزيد القول:

لا أستطيع الصبر عنها إنما من مهجتي نزلت بكلّ مكان³⁸

هناك شاعر آخر من منهل العذريين الذين اشتهروا بأسماء الحبوبيات، هو كثر
عزة، شغف قلبه حبّ عزة³⁹ فلا يرجع عن حبّها أيلومه اللائمون عليه أم يشي الواشون
إليها، كما هو شأن الشعراء العذريين، وهم لا ينكبون على ما شاعت بأفواه الناس، فهو
في نفس الأحوال والأهوال يقول:

فإن سأل الواشون فيم صرمتها فقلّ نفس حرّ سُلّيت فتسلّت
كأني أنادي صخرة حين أعرضت من الصمّ لو تمشي بما العصم زلت⁴⁰

وفي موضع آخر يعبر عن حاله قبل العشق بما وبعده، فيقول:
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت⁴¹
قد تركت ذكرياته مع عزة في نفسه ألماً فاجعاً وكمداً لا يشفى منه إلا بلقائها،
ولكن هيهات فإنها لا تستجيب له.

يسهل الاستنتاج من الفقرات المتقدمة أن الشاعر العذري في العصر الأموي لا يفتأ يتعلق بعشيقته واحدة، ولم ينصرف عنها إلى أخرى حتى كمد من البعد عنها، وحتى مات في حبها.

بعض النماذج للغزل المجون

والآن أشرع فيمن تنحوا عن السبيل المقيم؛ سبيل الحياء والعفة سبيل التنزه
والستور، فأولا نأتي إلى بيان من رأس الإباحيين الهاتكين لستور المحصنات حتى فاز على
الخط الرئيسي في مجاله أعني: عمر بن أبي ربيعة الذي تكلمنا عنه في ما قبل، وهو يقول
لإحدى محبوباته:

ألا ليت أني يوم حانت منيتي شمت الذي ما بين عينيك والغم
وليت طهوري كان ريقك كله وليت حنوطي من مشاشك والدم
ويا ليت سلمى في القبور ضجعتي هنالك أو في جنة أوجهنم⁴²

في الأبيات المتقدمة يتمنى هذا الشاعر الغزل أن يُطعى المنية في حالة أن يكون
فيها يلهم خلدٍ حبيبته، ويتمتع بها، ويداعب معها، وأيضاً أن يُغسل بريقها، ويتمنى
مصاحبة سلمى أكانت في جهنم أو الجنة، وهي غاية ما يقال لعدم الاعتناء بوقار
حبيبة.

وكذا يذكر استهتاره بعشيقته التي قد داعبها، وهو الاستهتار الذي لم يخف من

شعر امرئ القيس هتكا للوقاحة والإباحة قط، فهو القائل:

قالت وعيش أخي ونعمة والدي لأنبهن الحي إن لم تُخرج
فخرجت خوفاً يمينها فتبستمت فعلمت أن يمينها لم تخرج
ثم ينشد بما هو شهير به:
فتناولت رأسي لتعرف مسه بمخضب الأطراف غير مُشجج

لقد لاحظنا طريقة عنوته وظلمه خلُقاً بأن كيف كان متروك الحبال على الغوارب، لأنه ما غفل عن النقب في مباني السكينة والعفة التي هي كل متاع جارية محصنة. ولا معنى هذا، قد خلعت طبائع الناس في ذلك الزمان من الخلق الكريمة والالتزام عليها، بل لا بد في كل حقبة من مثل هؤلاء المفضحين.

ثم هو عند ما يكشف عما جرى بينه وبين إحدى مداعباته، فلا يكاد يترك ما همس بقلبه، ولا يكاد أن يكتبني بواحدة منهم بل أتى بأكثر من خمسين اسماً لمختلف النساء اللاتي تعهدن به. وخلافاً ذلك فيما تقدم في بيان الغزل العذري أن هناك شاعراً من تلك الجماعة يكتبني بمحبة واحدة مع رعاية كاملة لحياها ويحتمل عما يلزم به اتهامها، وهذا العمل لا للحظة واحدة بل ما انفك مستمراً عليه حتى يموت كبدلاً لفراقها. ونأتي بأمثال أخرى لهذه الأشعار التي نقتب بها ابن أبي ربيعة في وقار الحرائر وأستارهن، وهو يقول:

وناهدة الثديين قلت لها أتكي
فقلت على اسم الله أمرك طاعة
فلما دنا الإصباح قالت فضحتني
فقم غير مطرود وإن شئت فازدد⁴⁴
على الرمل من جبانة لمن توسد
وإن كنت قد كُلفت ما لم أعود

مهما يكن من فضاحتها وانتهاكها بأستار الحرائر، فقد برع غزل عمر الفضاح خاصة، ومن دونه عامة في نفس الطبقة بشدة الأسر، واستنطاق الربيع، وحسن الوصف، وإنطاق القلب، ومخاطبة النساء. وخير مثال لها قوله:

فلما توافقنا وسلمت أشرفت
تباهن بالعزبان لما رأيني
وجوه زهاها الحسن أن تتقعا
وقلن امرؤ باغ أكل و أوضعا⁴⁵

وإثراً لموت هذا الرجل الشهير أعني: ابن أبي ربيعة، ملاً فراغه شاعر فضاح مثله وهو: العرجي الذي قد ملاً ما بقيت الفراغات لدى سيده ابن أبي ربيعة، وقاس الحب بما قاسه قائده ابن أبي ربيعة، فمحا أستار العزة وأسرار الفضيلة. فهذا هو يُنشد في أم محمد بن هشام⁴⁶ ما في أقصى وسعه، لا عشقاً بما بل إفصاحاً لها، فهو يقول:

عوجي علينا زنة الهودج
في الحج إن حجت وماذا مني
إنك إن لا تفعلني تحرجي
وأهله إن هي لم تحجج⁴⁷

ولما سمع عطاء بن أبي رباح⁴⁸ البيت الثاني، فقال: الخير والله كله بمنى، وأهله حجت أو لم تحج⁴⁹.

إنما الخروج على مبادئ الإسلام في الأشعار واضح وضوح الشرق، وما خلا الدهر عن العباقرة الذين دافعوا عن الإسلام حق الدفاع.

وما كان العرجي وحده يأخذ بما سقط من عمر، بل استضاء من قبسه من كانوا لا يحسنون السبل، وتزلزل بعضهم في العصر العباسي حتى ذهب فيه الملوك إلى نهاية أن طلبوا ممن امتنع من الشعراء عن إنشاد الشعر الغزلي أو المدحي، كما فعل لدى أبي العتاهية⁵⁰ بحيث وقف عن صناعة الشعر فأجبره الخليفة المهدي على الرجوع إلى الإنشاد، إذ هؤلاء السلاطين كانوا يحبون أن يتمتعوا بما يقوله الشعراء فيهم. وكان بشار بن برد الأعمى من طبقة الفُضّاح وشرب بكأس ابن أبي ربيعة وتلمذ على شعره الإباضي فأجاد التعلّم منه، ثم أشاد عن تلعبه مع النساء:

حسبي وحسب الذي كلفت به مني ومنه الحديث والنظر
أو قُبلةٌ في خلال ذاك وما بأس إذا لم تحلّ لي الأزُرُ
أو عضّة في ذراعها ولها فوق ذراعي من عضها أثر

هل ترى كيف نهم ببيان عورات النساء؟ ولم يبالي بمن حوله قط، ولم يكتف به بل استزاد فاستزاد في الإشهار بمنّ فلم يشبع عنها حتى قال:

أو لمسةٌ دون مرطها بيدي والباب قد حال دونه السُتُرُ
والساق براقّة مخلخلها أو مصّ ريق وقد علا البُهِرُ
واسترحت الكفّ للعراك وقالت إيه عني والدمع منحدر⁵¹

ما أفصح بشاراً في البيت الأول، وأخذل به؟ وهذا الشان لا يجري عند الشعراء الثلاثة المذكورة فقط بل هم كثيرون قد مارسوا نفس الفن وذهبوا فيه إلى أقصى غاياتهم.

خلاصة المقال

الغزل العربي قد مرّ بعصرين مختلفين؛ مكث في العصر الجاهلي في مصاحبة الفنون الأدبية الأخرى، وقل: لا توجد في ذا الزمان قصيدة إلا وللغزل فيه سهم بارز. وكذا تغير كغيره من الفنون بوقائع الزمن وحوادث الدهر فازدادت محتوياته حيناً حسب تغير ناشئ من تلك الحوادث وآخر انتقصت مما كان يمتاز به في الزمن المتقدم حتى عُرف كفنٍ مستقل لدى الشعراء الأمويين، وتقسّم إلى نوعين مستقلين بذاتهما، وهما: الإباحة العمرية والعفاف الجميلي؛ فالقسم الذي اعتني فيه بالأخلاق الحسنة النافعة والحببية الواحدة المكتفية فاتسم بالعفة، وما سير فيه إلى الفضائح والردائل، وهتك الستور، وكشف العورات، والإفصاح بما كان يلزم فيه الإخفاء أعني: الأحوال الجارية بين المحب وحببيه، فقد سمّي بالغزل الفاضح الماجن.

الهوامش

1: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يماي الأصل. جعل يشيب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته. فأبعده إلى دمون بحضرموت، موطن آبائه وعشيرته. ثم يشرب ويطرب ويغزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك امرأ القيس.

فأراد الثارة على بني أسد يستعين بالروم على الفرس. فقصد الحارث ابن أبي شمر الغساني والي بادية الشام فسيره هذا إلى قيصر الروم. فوعده ومطله. ثم ولاه إمرة فلسطين فرحل يريدّها. فلما كان بأنقرة ظهرت في جسمه قروح. فأقام إلى أن مات في أنقرة نحو 80 ق هـ. [ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 31.... الأصفهاني، الأغاني 9: 77.... البغدادي، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب 1:

62.... الأعلام 2: 12]

2 الزوزني، شرح المعلقات السبع: 51

3 نفس المصدر: 51

4 نفس المصدر: 59

5 نفس المصدر: 60

6 نفس المصدر: 61

7 نفس المصدر: 62

- 8 نفس المصدر: 63
- 9 نفس المصدر: 64
- 10 نفس المصدر: 69
- 11 نفس المصدر: 72
- 12 نفس المصدر: 72
- 13 حسين بن أحمد بن حسين الزوزني، أبو عبد الله: عالم بالأدب، قاض، من أهل زوزن (بين هراة ونيسابور) له (شرح المعلقات السبع - ط) و (المصادر - خ) و (ترجمان القرآن - خ) بالعربية والفارسية. [بغية الوعاة، السيوطي 1: 531.....الأعلام 2: 231]
- 14 شرح المعلقات السبع: 38
- 15 نفس المصدر: 39
- 16 نفس المصدر: 39
- 17 نفس المصدر: 42
- 18 وفي رواية: مغيل
- 19 المصدر السابق: 41
- 20 عنتر بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي: أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى. من أهل نجد. أمه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها. وكان من أحسن العرب شيماً ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة. توفي نحو اثنتين وعشرين سنة قبل الهجرة. [الشعر والشعراء 2: 243-245.....الأغاني 8: 237]
- 21 حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشر الطائي القحطاني، أبو عدى: فارس، شاعر، جواد، جاهلي. يضرب المثل بجودة. كان من أهل نجد، وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية، ومات في عوارض (جبل في بلاد طبرستان) قال ياقوت: وقبر حاتم عليه. شعره كثير، ضاع معظمه، وبقي منه (ديوان - ط). صغير. وأخباره كثيرة متفرقة في كتب الأدب والتاريخ. وأرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم. [الشعر والشعراء 1: 235 - 242.....الأعلام 2: 151]
- 22 كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، أبوالمضرب: شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد. كان ممن اشتهر في الجاهلية. ولما ظهر الإسلام هجا النبي صلى الله عليه وسلم وأقام يشبب بنساء المسلمين، فهدر النبي دمه، فجاءه كعب مستأماً، وقد أسلم، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول، فعفا عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخلع عليه برذته. وهو عن أعرق الناس في الشعر: أبوه زهير بن أبي سلمى، وأخوه بجير، وابنه عقبة وحفيده العوام، كلهم شعراء. توفي سنة 26هـ. [ابن

عبد البر، الإستيعاب في معرفة الأصحاب 1: 402.... ابن حجر العسقلاني، الإصابه في تمييز الصحابة
1: 269]

23 أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب: 632.... الزوزني، شرح المعلقات السبع: 179
24 جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو: شاعر، من عشاق العرب. افتتن ببثينة من
فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما. شعره يذوب رقة، أقل ما فيها مدح، وأكثره في النسيب والغزل
والفخر. توفي سنة 82هـ. [الشعر والشعراء: 166.... ابن خلكان، وفيات الأعيان 1: 115]
25 عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب: أرق شعراء عصره، من طبقة جرير
والفرزدق. ولم يكن في قريش أشعر منه. ولد في الليلة التي توفي بها عمر بن الخطاب، فسمي باسمه. غزا
في البحر فاحتترقت السفينة به وبمن معه، فمات فيها غرقاً سنة 93هـ. [الشعر والشعراء: 216.... وفيات
الأعيان 1: 353 - 378]

26 عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان ابن عفان الأموي القرشي، أبو عمر: شاعرٌ غزل، ينحو نحو
عمر ابن أبي ربيعة. كان مشغولاً باللهو والصيد. وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء، ومن الفرسان
المعدودين. وسجنه والي مكة محمد بن هشام في تهمه دم مولى لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن
إلى أن مات سنة 120هـ. [الشعر والشعراء: 224.... ابن حزم الأندلسي، جمهرة الأنساب 1: 85]
27 بشار بن برد العقيلي، بالولاء، أبو معاذ: أشعر المولدين على الإطلاق. أصله من طحارستان (غربي
نهر جيحون) ونسبته إلى امرأة (عقيلية) قيل إنها أعتقته من الرق. وكان ضريباً. نشأ في البصرة وقدم
بغداد. وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. وشعره كثير متفرق من الطبقة الأولى، جمع بعضه في (ديوان -
ط) 3 أجزاء منه. قال الجاحظ: (كان شاعراً راجزاً، سجاعاً خطيباً، صاحب منثور ومزدوج، وله رسائل
معروفة) . واتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط، ودفن بالبصرة. [الشعر والشعراء 2: 745 -
748.... الأعلام 2: 52]

28 كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر: شاعر، متيم مشهور. من أهل المدينة.
أكثر إقامته بمصر. وفد على عبد الملك بن مروان، فازدرى منظره، ولما عرف أدبه رفع مجلسه، فاخصص
به. توفي بالمدينة سنة 105هـ. [الأغاني 8: 25.... خزانة الأدب 2: 381-383.... وفيات
الأعيان 1: 433]

29 قيس بن الملوح بن مزاحم العامري: شاعر غزل، من المتيمين، من أهل نجد. لم يكن مجنوناً وإنما
لقب بذلك لهيامه في حب " ليلى بنت سعد ". قيل في قصته: نشأ معها إلى أن كبرت وحجبتها أبوها،
فهام على وجهه بنشد الأشعار ويأنس بالوحوش، فيرى حيناً في الشام وحيناً في نجد وحيناً في الحجاز،
إلى أن وجد ملقى بين أحجار وهو ميت فحمل إلى أهله. [الشعر والشعراء 2: 549 -
555.... فوات الوفيات 2: 136]

- 30 ديوان مجنون ليلي: 125
- 31 ديوان جميل بثينة: 81.... الأغاني: 1: 124
- 32 ديوان جميل: 1
- 33 المصدر نفسه: 8
- 34 المصدر نفسه: 24.... الأغاني: 2: 379
- 35 ديوان جميل: 26
- 36 عبدالله بن محمد، من بني ضبيعة: شاعر هجاء، صافي الديباجة، من طبقة جميل بن معمر ونصيب. كان معاصراً لجرير والفرزدق. وهو من سكان المدينة. ولقب بالأحوص لضيق في مؤخر عينيه.. وكان حماد الراوية يقدّمه في النسيب على شعراء زمنه. مات بدمشق سنة 105هـ. [الشعر والشعراء: 204.... الأغاني: 4: 40 - 58]
- 37 ديوان الأحوص: 35
- 38 الأغاني: 9: 158
- 39 عزة بنت حميل (بالحاء، مصغراً) بن حفص بن إياس الحاجبية الغفارية الضمرية: صاحبة الأخبار مع " كثير " الشاعر. كانت عزيزة الأدب، رقيقة الحديث، من أهل المدينة. انتقلت إلى مصر، في أيام عبد الملك بن مروان، فأمر بإدخالها على حرمه ليتعلم من أدبها. [أبو عبيد الأندلسي، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: 1: 698.... الأعلام: 4: 229]
- 40 ديوان كثير عزة: 33
- 41 المصدر نفسه: 32
- 42 العقد الفريد، ابن عبد ربه: 1: 93
- 43 الأغاني: 1: 197
- 44 المصدر نفسه: 1: 198
- 45 نفس المصدر: 1: 131
- 46 محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي: ولاة هشام بن عبد الملك إمرة مكة والطائف، فقام عليها إلى أن ولي الوليد الخلافة، فعزله، وطلبه إلى الشام فجلده، وبعثه إلى العراق مع أخيه إبراهيم بن هشام المخزومي موثقين بالحديد، فعذبهما أمير العراق يوسف بن عمر حتى ماتا سنة 126هـ. [ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 2: 357.... الأعلام: 7: 131]
- 47 الأغاني: 1: 393

تهذيب الأفكار: المجلد 2، العدد 2 تطور فن الغزل بين العفاف والمجون في.... يوليو-ديسمبر 2015م

48 عطاء بن أسلم بن صفوان: تابعي، من أجلاء الفقهاء. كان عبداً أسود. ولد في جند باليمن، ونشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها سنة 114هـ. [ابن الجوزي، صفوة الصفوة 2: 119.... شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفاظ 1: 92.... الذهبي، ميزان الاعتدال 2: 197]

49 الأغاني 1: 393

50 إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي بالولاء، أبو إسحاق، الشهير بأبي العتاهية: شاعر مكثراً، سريع الخاطر، في شعره إبداع. وكان في بدء أمره يبيع الجرار فقبل له الجرار ثم اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم. وهجر الشعر مدة، فبلغ ذلك المهدي العباسي، فسجنه ثم أحضره إليه وهدده بالقتل أو يقول الشعر، فعاد إلى نظمه، فأطلقه. وأحباره كثيرة. توفي في بغداد سنة 211هـ. [الشعر

والشعراء 2: 279 - 281.... الأغاني 4: 1.... الوابي بالوفيات 3: 233]

51 الأغاني 3: 378